منزل للبيع

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأستاذ أنور لوقا

وراء تلك اللافتة الصغيرة المبتذلة المعلقة على باب بيت من البيوت ، قرأ ألفونس دوديه — وهو الذى لقب نفسه « بالشيء الصغير » واستلهم اشياء أدبه — هذه المأساة الانسانية المؤثرة .

فوق الباب ، باب خشبي واهي المفاصل ، يدع رمل الحديقة الصغيرة يختلط بتربة الطريق على بسطة من الأرض ، كانت لافتة معلقة منذ أمد بعيد ، ساكنة فى شمس الصيف ، معذبة تحكوفى ريح الخريف ، عليها « منزل للبيع » ، ولعلها كانت تقول أيضا « منزل مهجور » ، فقد كان الصمت يكتنف الدار .

ولكن أمرأ كان يقيم هناك . فإن دخانا خفيفا مزرقا يصعد من آجر المدخنة الذى يعلو الجدار قليلا ، كان ينم عن حياة خفية ، متكتمة، حزينة كهذا الدخان الذى ينبعث من نار الفقراء. ثم من خلال ألواح الباب المزعزعة ما كنت تحس الإهمال والخواء، وهذا الجو الذى يسبق ويعلن بيعا أو رحيلا ، بل ترى ممرات الحديقة مستقيمة التخطيط ، وعرائش مستديرة مشذبة ، وماق بجوار الحوض ، وأدوات بستانى مسندة إلى البيت الصغير . لم يكن ذلك الربع سوى بيت من بيوت الفلاحين ، يتوازن على هذه الأرض المنحدرة بسلم صغير قد نحى الطابق الأول جهة الظل والطابق الأرضى جهة الجنوب . ومن تلك الجهة كان يخيل إليك أنه معمل من معامل الإنبات . فقد رصت على درجات السلم نواقيس زجاجية ، وأصص فارغة مقلوبة ، وأخرى منضودة على الرمل الأبيض الساخن قد نما فيها « الجيرانيوم » و « المرفين » بيد أن الحديقة كلها ، فيما عدا شجرتين او ثلاثا من شجر السرج الفارع ، كانت تحت وهج الشمس . وكانت تمتد فى النور الساطع مروحة من أشجار الفاكهة ، قائمة على أسلاك حديدية ، أو مفرشة وقد انتزعت بعض أوراقها إعدادا للثمرة ليس غير ، كما اصطفت أيضا أغراس من الشليك وأغراس من البازلاء تتسلق قضبانا طويلة مثبتة فى الأرض . وفى وسط هذا كله ، وسط هذا النظام وهذا الهدوء ، كان رجل عجوز ، ذو قبعة من الخوص، يجوس خلال المسالك طول النهار، يروى فى الساعات الرطيبة، ويقتطع ويشذب الأغصان ويسوى الأفاريز .

هذا الشيخ لم يكن يعرف أحدا فى البلد . لم يكن يطرقه زائر قط . اللهم إلا عربة الخباز التى كانت تقف بكل باب فى شارع القرية الوحيد . وأحيانا كان يرى اللافتة عابر من الناس يلتمس قطعة من أراضى السفح هذه الغنية الخصبة التى تمنح بساتين جميلة فيتوقف ليقرع الباب . يقرع فى أول الأمر فإذا البيت أصم . ثم يقرع ثانيا ، فيدنو من أقصى الحديقة وقع « قبقاب » فى بطء وتؤدة ، ويوارب الشيخ بابه وهو متجهم الوجه :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل المنزل للبيع ؟

فيجيب الرجل الطيب القلب فى جهد :

ـ نعم ... ولكنى أقول لك مقدما إنهم يطلبون فيه ثمنا غاليا جدا ...

وكانت يده المتأهبة لإغلاق الباب تسده عليك — وكانت عيناه تطردانك ، فما أشد ما كانتا تظهران من سخط ،وكان يظل هناك قائما كالفارس على حراسة أحواضه وخضره وفنائه الصغير المفروش بالرمل . وإذ ذاك كان الطارقون يتابعون سبيلهم وهم يسائلون أنفسهم من تراه يكون هذا المخبول الذى عرضوا له؟ وأى جنون هذا الذى يحمله على الإعلان عن بيع منزله بهذه الرغبة الملحة فى الاحتفاظ به .

وأخيرا وضح لى هذا السر . ذات يوم وأنا مار أمام البيت الصغير، سمعت أصواتا ثائرة ، وصخب مناقشة حامية .

يجب البيع يا أبانا ، يجب البيع. لقد وعدت بذلك . وسمعت صوت الأب متهدجاً يقول : إنى يا أولادى لا أطلب أفضل من البيع ... أما ترون أنى قد وضعت اللافتة. وهكذا علمت أن هؤلاء هم أبناؤه وكناته ، تجار من صغار أصحاب الحوانيت فى باريس ، يحملونه على أن يتخلص

من هذا الركن الحبيب . لأى سبب ؟ هذا ما كنت أجهله . أما المؤكد فهو أنهم بدأوا يلمسون أن الأمر قد طال وأن الشيخ يعطلهم . ومنذ ذلك الوقت أقبلوا بانتظام يوم الأحد من كل أسبوع ، يستهضون الرجل المسكين ويحثونه على أن ينجز وعده ومن الطريق فى هذا الصمت المريض الذى يسود القرية يوم الأحد ، حين تستريح الأرض ذاتها من كونها قد حرثت وبذرت طوال الأسبوع ، كنت أسمع ذلك جليا . كان التجار الصغار يتحدثون ، ويتجادلون فيما بينهم وهم يلعبون لعبة « البرميل » ، وكانت كلمة « النقود » ترن رنينا جافا كهذه الأقراص المدنية التى يقذفونها . وفى المساء كان الجميع يرحلون ، وكان الرجل الطيب القلب ، بعد أن يرافقهم فى الطريق بضع خطوات ، يعود مسرعا فيغلق من جديد بابه الغليظ سعيدا مبتهجا ، وقد ظفر بعهلة لمـــدة أسبوع . ويستعيد البيت سكونه ، ويظل ساكنا ثمانية أيام ، فما تسمع فى الحديقة الصغيرة التى تلفحها الشمس إلا صوت الرمل يسحقه وطء قدم ثقيلة أو تجرفه المجرفة .

على أنهم من أسبوع لأسبوع ، راحوا يضيقون الخناق على الشيخ . ولم يدخر صغار التجار وسيلة من الوسائل . أحضروا الأحفاد لإغرائه : « أترى ياجدنا ، حين يباع البيت ستأتى لتسكن معنا . وكم سنكون سعيدين معا ! ... » ثم كانت أحاديث منفردة يلقيها كل امرىء لنفسه فى ركن من أركان البيت على حدة ، وسير خلال ممرات الحديقة لا يقف عند حد ، ومسائل حسابية يجريها صوت مرتفع . ومرة سمعت إحدى البنات تصيح :

— هذا الخص لا يساوى مائة دانق ... إنه خليق بأن يهدم .

وكان الشيخ يصغى دون أن يقول شيئا . كانوا هم يتكلمون عنه كأنه قد مات ، وعن داره كأنها قد هدمت بالفعل . فكان يتجنبهم ويمشى ، أحدب الظهر ، والدموع ملء عينيه ، ملتمسا كعادته غصنا يشذ به أو ثمرة يعنى بها أثناء مروره . وإنك لتحس أن حياته قد تغلغلت جذورها فى هذا الركن الصغير من الأرض تغلغلا لن يبعث فيه القدرة على اجتثاث نفسه منه . والحق أنه كان مهما افتنوا فى إغرائه ، يرجىء دائما لحظة الرحيل . فى الصيف ، حين تنضج هذه الثمار التى يوحى إليك مذاقها الحامض بعض الشىء بأن السنة ما زالت فى نضرتها وريعانها ، ثمار الكرز ، والبرقوق ، والمشمش ، كان يقول :

لننتظر المحصول ... سأبيع بعده مباشرة .

وبعد المحصول ، بعد انقضاء موسم الكرز ، يأتى موسم الخوخ ثم العنب ، وبعد العنب تأتى ثمار « النيفل » السمراء الجميلة التى يكاد المرء يجنيها تحت الجليد . وحينئذ يأتى الشتاء ، فيسود الريف وتخلو الحديقة . الآن لا مارة ، ولا ثمراة ، بل ولا صغار التجار يوم الأحد ، وإنما ثلاثة أشهر عريضة من الراحة لإعداد البذار ، وتقليم أشجار الفاكهة ، بينما تتأرجح على الطريق اللافتة الباطلة وقد قلبها المطر والريح .

وعلى مر الأيام ، فرغ صبر الأبناء واقتنعوا بأن الشيخ كان يبذل كل ما فى وسعه لإقصاء المشترين ، فاتخذوا قراراً حاسما . قدمت إحدى الكنات واستقرت بجانبه ، وتلك امرأة صغيرة من نساء الذكاكين ، حالية منذ الصباح ، بارعة فى إظهار الحفاوة وتكلف الرقة والتلطف فى المجاملة براعة الذين اعتادوا التجارة . وكأن الطريق قد أصبح ملكها . فقد كانت تفتح الباب على مصراعيه ، وتتحدث وتلغو ، وتبتسم للمارة كأنما تقول لهم :

— أدخلوا ... أنظروا ... إن المنزل للبيع !

ولم تعد للشيخ المسكين مهلة بعد ذلك . أحيانا كان يحاول أن ينسى أنها هناك ، فينصرف إلى تقليب حياته وبذرها من جديد ، كهؤلاء الناس الذين يوشكون على الموت ويحبون القيام بمشروعات ليخدعوا مخاوفهم . ولكن البائعة كانت تتبعه طيلة الوقت وتنغص عليه . — دع ! ما انتفاعك بهذا ؟ ... أمن أجل سواك تجشم نفسك كل هذا التعب ؟ فما كان يجيبها وإنما كان ينكب على عمله فى عناء غريب . إن ترك حديقته لمبث الاهمال معناه فقدانها بعض الفقدان منذ ذلك الوقت ، وبدء انفصاله عنها . ولهذا ما كنت تجد فى الممرات عودا واحدا من العشب ، ولا فى شجيرات الورد فصنا طفيليا .

وظل البيت معروضا للبيع ، ولكن الشراة لم يتقدموا .

ذلك أن الحرب قد نشبت . وعبثاً ثابرت المرأة على فتح بابها وإرسال النظارات المحولة إلى الطريق ، فلم يكن يمر غير النازحين من الأرض ولم يكن يدخل إلا الغبار . واشتد غيظ السيدة من يوم إلى يوم ، لا سيما وقد كانت أعمالها في باريس تستدعيها . كنت أسمعها توسع حماها لوماً وتأنيباً ، وتقسو في الهجوم عليه وتخبط الأبواب ، وأما الشيخ فكان يحني ظهره دون أن يقول شيئاً ، ويتعزى إذ يبصر بازلاءه الصغيرة تنمو ، واللافتة معلقة في مكانها دائماً : « منزل للبيع » .

وفي هذا العام ، عندما وصلت إلى الريف ، وجدت المنزل وعرفته ! ولكن واحسرتاه لم تكن اللافتة هناك ! كانت إعلانات ممزقة بالية لم تبرح عالقة بأوجه الجدران . لقد قضي الأمر ، وباعوه ! ... وفي مكان البوابة الرمادية الكبيرة أصبح باب أخضر ، حديث الطلاء ، تعلوه عتبة مستديرة ، وتنفتح فيه نافذة ذات قضبان ، تلوح من ورائها الحديقة . ولم تعد الحديقة ذلك البستان الذي كنت أعهده هناك قديماً ، بل غدت خليطاً (بور جوازيا) من السلال ، والخضرة ، ومساقط الماء ، وصورة لهذا كله تنعكس على كرة معدنية تتأرجح أمام الدرج . وفي هذه الكرة ، بدت الممرات صفوفاً من الأزهار الزاهية ، وامتد شكلان في كثير من المبالغة والتهويل ، رجل سمين أحمر ، غارق في عرق غزير ، غائص في كرسي من كراسي النزهة الخلوية ؛ وسيدة ضخمة لاهثة الأنفاس ، تصيح وهي تلوح بمسقاة بيدها .

ـ لقد دفعت ثمناً للبلسمين أربعة عشر !

وكانوا قد شيدوا طابقاً ، وجددوا السياج ، وفي هذا الركن الصغير المتطرف ، الذي مازالت تفوح منه رائحة الطلاء ، كان (بيانو) يعزف ملء الريح مقطوعات صاخبة مبتذلة وألحاناً جذلة مما تردده حلبات الرقص العامة . وهذه الأنغام الراقصة التي كانت تنطلق إلى الطريق نابضة حارة ، مختلطة بقتام يوليه الكثيف ، وعجيج تلك الأزهار الضخمة ، والسيدات الضخمة ، هذا المرح الناضر الفياض ، هذا المرح السوقي المبتذل ، كان يقبض قلبي . كنت أفكر في الشيخ المسكين الذي كان يتمشى هنا راضياً وادعاً سعيداً ، ثم أتمثله في باريس ، وقبعة الخوص على رأسه ، وحدبة البستاني العجوز في ظهره ، هائماً في غور دكان ما ، ضيقاً بأمره ، حيياً ، مشحوناً بالدموع ، بينما تتبوأ زوجة ابنه الظافرة خزانة جديدة ، ترف فيها قطع ذهبية هي ثمن البيت الصغير .

أنور لوقا

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بمكاتب حضرات أطباء أول المستشفيات الآتية لغاية الساعة الثانية عشر ظهر يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٠ لتوريد الأغذية اللازمة لهذه المستشفيات لعام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وهي :

الانكلستوما رقم ٢٢ بالجيزة — العياط الواسطي — إطسا فيوم — مغاغة — الفكرية — سمالوط — بني مزار — البلينا — قوص — عتيبة — القصير — شبرا الخيمة — أجا — إنشاص — دسوق — الطيبة بنبروه — فوه — الرمد والانكلستوما بأبي كبير شرقية — الانكلستوما ـ ٤٠ بديرب نجم — زاوية الناعورة — تلا — الانكلستوما ٣٩ بطوخ — الانكلستوما ٢٤ بإيتاي البارود شبين القناطر .

وتطلب قوائم الناقصات من المستشفيات نفسها على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليماً وثمن كل قائمة ٢٥٠ مليم للنسخة الواحدة مضافاً إلى ذلك مبلغ ثلاثين مليماً أجرة البريد .

٤٢٤٩